المقدمة: (*) ضرورة التحديد

يعد تحديد الثوابت والمتغيّرات(١) فى حياة الشعوب والأمم ضرورة لا بد منها، إذ لو بقيت الثوابت والمتغيّرات - معًا - فى حالة سيولة وتداخل واختلاط فإنّ من المتعذر تحديد أهداف وبناء استراتيجيّات، وتخطيط حاضر أو مستقبل أو فهم لماضٍ. وجلّ عمليات التزوير الكبرى التى يتعرض لها تاريخ الشعوب، وسير الأمم تستهدف فى مقدمة ما تستهدف إزالة الفواصل بين الثابت والمتغيِّر من مكوناتها، وخلط الأوراق بحيث تتعذَر الرؤية السليمة

(*) هذه خلاصة محاضرة قدمت خطوطها العامة فى (مسجد السلام) فى ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٠٣م. ثم قدمت فى محاضرة أخرى، ومن زاوية مغايرة فى اجتماع ضم نخبة من العراقيين فى أمريكا شارك فيها أساتذة وقيادات ورجال أعمال جمعهم الهم العراقى، ومثلوا أهم ألوان الطيف العراقى فى أمريكا للبحث فيما يمكن للمشاركين أن يقدموه لوطنهم الحبيب ولشعبهم العراقى العزيز.

(١) الثابت: ضد المتغير، فكل ما لا تتغير حقيقته بتغير الزمان ثابت، ويطلق - أيضًا - على الأمور التى لا تزول بتشكيك المشكك. كما تطلق على المستقر، ولعل المراد بقوله تعالى ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وقوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾[إبراهيم: ٢٧] هو القول الصحيح المستقر الذى لا يزول أو يتزحزح بالتشكيك. راجع: المعجم الفلسفى، لجميل صليبا ١/ ٣٧٣ وهو فى معنى الجوهر فالأشياء نوعان جواهر وأعراض: فالجواهر هى الأشياء القائمة بنفسها. والأعراض هى ما لا يقوم إلا بغيره، فهى حالة فى الجواهر. راجع: مصطلحات الفلسفة عند العرب، چيرار چهامى، مادة جواهر، ص ٢١٠، وأما المتغير فهو القابل للتغير، أو ما يمكن تغيره وتغييره. أو ما ينزع إلى التغير، والتغير هو الانتقال من حالة إلى أخرى. راجع: المعجم الفلسفى ٢/ ٣٣٠.

والفهم المستقيم، فتنعدم - آنذاك - القدرة على البناء والتدبير اللذين يحتاجان إلى طاقات الأمة كلها.

فلا غرابة - والأمر كذلك - أن تجرى بين الحين والحين عمليات تزوير لتاريخ أمم وشعوب، وإعدام لذاكرتها التاريخيَّة أو تخريب لها؛ لئلا تتمكن من النهوض إذا ما كبت أو تعثرت. ولذلك فإنّ عمليّات تصحيح التاريخ وتنقيته، وإعادة الوعى الصادق على ثوابت ذلك الشعب أو تلك الأمة ومتغيراتها تعد من أوليّات العمل الفكرىّ الجاد البنَّاء، ومن ضروريّات إعادة تشكيل الوعى الصادق(١) من جديد.

إنّ القرآن المجيد قد قدم لنا نماذج رائعة فى عمليَّات التصحيح التاريخى. فقد استرجع تاريخ الأنبياء وتراثهم، وقام بمراجعته ونقده، وتنقيته مما أصابه من تحريف أو تغيير أو إضافة أو حذف ليعيده صادقًا كما بدأ، قائمًا على الصدق والحقيقة والكلمة الإلهية فقط. واضح المعالم، بيّن القسمات، تتميز فيه ثوابت الأنبياء والرسل وثوابت رسالاتهم عن المتغيّرات، وتتميز فيه السنن الثابتة عن القوانين المتغيَّرة، ومميزات الأمم وخصائصها الثابتة والمتغيَّرة(٢)؛ لكى تتمكن من ممارسة فعل النهوض واستعادة الدور.

---

(١) وصف الوعى بالصدق والكذب مستفاد من وصف "الفجر" بهما، فهناك الفجر الكاذب وهو ضوء يسبق طلوع الفجر، وهو مقدمة له قد يتوهم البعض أنه الفجر الصادق، وليس به، وهناك الفجر الصادق - أى الحقيقى - الذى يعقبه ضياء النهار لا الظلام.

(٢) لقد استرجع القرآن المجيد تاريخ البشرية من القرار الإلهى بل من العهد الإلهى الذى أخذه الله من بنى آدم عند خلق آدم واستخلافه مرورًا بتاريخ الخلق والتكوين، ودخول الجنة والخروج منها. ثم ما أعقب ذلك من التجربة الإبراهيمية والإسرائيلية، وقبلها تجربة نوح وغيرهم من الأنبياء وصولاً إلى نبوة محمد ﷺ وما جرى له مع قومه حتى اكتمال الدين وإتمامه وتوقف الوحى وتمام القرآن قبل وفاته عليه الصلاة والسلام.

ونحن إذ نستهدى بهدى القرآن الكريم فى موضوع التخطيط لإعادة بناء "العراق الحديث" لنرجو أن نوفق إلى توضيح الصورة التى شابها من العبث والخلط، والتزييف المقصود وغيره ما يجعل الأمر - أمر التمييز بين الثابت والمتغّير - فى غاية الصعوبة. ونحن لا ندعى أنّنا سنحدد ذلك بالدقة المطلوبة، بل حسبنا أن نحاول ونفتح طريق البحث والتفكير الجاد أمام الباحثين الجادين لاستكمال ما بدأناه. فإنّ الضغوط كثيرة، وتلاحق الأحداث قد لا يتيح فرصة للتفكير العميق فى هذا الموضوع أو الانشغال الجدّىّ فيه. أو إعطائه ما يقتضيه من الوسائل والأدوات المنهاجيَّة والبحثيَّة. وعلى هذا فإنّ ما نقدمه إن هو إلا جهد المقل، أخذاً بقاعدة "إنَّ الميسور لا يسقط بالمعسور" و "أنّ ما لا يدرك كله لا يترك جلّه".

والأسئلة التى تحاول هذه الرسالة الإجابة عنها هى:

١- هل هناك ثوابت ومتغيرات فى الواقع العراقى الراهن، أو أن زلزال الاحتلال لم يبق شيئًا ثابتًا يمكن للعراقيين كافة أن يلتفوا حوله؟

٢- هل يمكن تحديد هذه الثوابت ورصدها فى خضم هذه الفوضى الفكرية والسياسية والعسكرية والاجتماعية وما إليها؟ خاصة بعد تلك المحاولات السابقة والراهنة لتزوير تاريخ العراق والتلاعب به، والمحاولات المستمرة لتخريب ذاكرته أم أن ذلك قد أصبح بعيد المنال؟

٣- كيف أعاد القرآن المجيد إنتاج تاريخ البشرية والنبوات والرسالات التى جاءتها؟ كيف تمكن من وضعه فى حالة الصدق، وتطهيره من سائر عمليات التزوير كلية كانت أو جزئية؟ وهل تمكن الاستفادة بهذا المنهج القرآنى فى إعادة كتابة تاريخ العراق، وتنقية هذا التاريخ من سائر ما أضيف إليه أو حذف منه، أو حرِّف فيه؟

٤- وإذا أوصل البحث إلى أن هناك ثوابت عراقية، فهل يمكن دعم هذه النتيجة، والاستدلال لها، وإثباتها أولاً؟

٥- وإذا تبين أن هناك ثوابت عراقية، ووقع نوع من الاتفاق الوطنى عليها أو على بعضها، وأقيمت الأدلة على وجودها، فما هذه الثوابت التى سنوردها فى هذه الرسالة؟ وكيف يمكن أن تجتمع الكلمة عليها؟

٦- هناك من يشكك فى "عربية العراق" واعتبارها صفة أساسية وثابتًا من الثوابت العراقية، فكيف يمكن دحض هذه الشبهة؟ وإزالة مصادر التشكيك فى عربية العراق، وإعادتها إلى موقعها السليم بين الثوابت العراقية قبل وقوع الفرقة والاختلاف؟

٧- هناك من يرى أن الخلاف بين السنة والشيعة خلاف متجذر وراسخ، وأنه خلاف دينى، عقيدى، مذهبى، وإثنى كذلك. ما نصيب هذا التصور من الحقيقة؟ وكيف يمكن توضيح هشاشة الاختلاف، وتوكيد أنه لا يتجاوز الفروع إلى الأصول، وأنه لا يختلف فى حجمه ومستواه عن اختلافات الرأى والمذاهب الفرعية داخل المذهب الواحد؟

٨- يرى البعض أن العراق بلد قابل للقسمة بطبيعة جغرافيته البشرية، وجغرافيته الطبيعية، ما نصيب هذا التصور من الصحة؟ وكيف نثبت خطأ هذا الرأى وخطله، ونبين أن العراق غير قابل لذلك؟ ولو أن هذا المنطق مقبول لما بقى قطر على وجه الأرض موحداً، حيث لا يوجد قطر واحد مهما صغر لا تختلف طبيعة مناطقه، ولم يتداخل فى جغرافيته السكانية مع شعوب أخرى؟

٩- كيف يمكن تعالى الجميع على جراحات الماضى، وإعادة حالة الصفاء والإخاء بين السنة والشيعة، ثم بين العرب والأكراد، وتوسيع دوائر المشتركات، وتضييق دوائر الخلافات ووضعها فى حجم طبيعى لا يسمح بتحويل ذلك إلى قنابل موقوتة يمكن الكشف عنها وتفجيرها ساعة يشاء أعداء البلاد؟

١٠- كيف يمكن إعادة بناء صلات القربى ووشائج الإخاء بين العرب والأكراد، وجمع كلمتهم على الأهداف المشتركة بين العراقيين، وكذلك الحال بالنسبة للتركمان، وسائر المجموعات الأخرى ليتحول هذا التنوع والتعدد إلى ميزة للمجتمع العراقى؟ وإمكانيته؟ لا إلى عبء وسلبيات؟

ولعل هذا الكتيب - على لطافة حجمه - قد أجاب عن بعض هذه الأسئلة بشكل وجيز يغنى اللبيب -إن شاء الله- ويفتح للحوار المشترك الذى لا يخاف سالكه دركًا ولا يخشى.

***

الثوابت العراقيَّة

بادئ ذى بدء أود أن أدعى بأنّ الثوابت العراقية الأساسية الكبرى هى :

الثابت الأول: "عربيَّة العراق"

الثابت الثانى: "إسلاميَّة العراق فى الفتح الإسلامى"

الثابت الثالث: "التنوُّع العراقى" فى الأديان والمذاهب والأعراق واللغات وطبيعة الأرض.

الثابت الرابع: "ضرورة توفير كل أسباب التداخل بين أبناء الشعب"

الثابت الخامس: "الوحدة الوطنية"

وهذه الثوابت الكبرى لا يمكن تجاهل أىّ منها، ولا التقليل من شأنها مهما كانت الظروف. وكل تجاهل لها أو لأىّ منها كلا أو جزءًا يحدث خللاً كبيرًا، ويكون مصدر انعدام توازن فى "هوية العراق" وفى "مقوِّمات الشخصيَّة العراقيَّة". وإذا اختل التوازن فى الشخصية والهوية أو فى إحداهما، استحالت إقامة كيان متماسك يستطيع توفير مقومات مجتمع، أو مكونات دولة، أو شروط استقرار. وفى هذا العرض الوجيز سنفصل القول فى هذه الثوابت؛ لتحصل القناعة لدى الجميع بأنها ثوابت، ولعله يقع الإجماع أو الاتفاق على إبقاء هذه الثوابت بعيدة عن المساومات السياسية والصراعات الحزبية والطائفية فى الحاضر وفى المستقبل، بحيث تبقى القضايا السياسية قابلة للتفاهم وممكنة المعالجة.